وقفات مع إبراهيم عليه السلام

(012) سورة يوسف

محاضرة في الأردن

2020-07-27

عمان

الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أحبابنا الكرام: في هذه الأيام نتنسَّم أجواء العشر من ذي الحجة، ونستقبل موسماً من مواسم الخيرات والبركات وهو موسم الحج، ونحتفل بعيدٍ هو عيد الأضحى، وبيوم هو يوم عرفة، كل هذه الأجواء تذكرنا بشخصية نبيٍّ عظيمٍ من أنبياء الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ إنّه سيدنا إبراهيم.

تميُّز سيدنا إبراهيم عليه السلام

خصوصية سيدنا ابراهيم

أحبابنا الكرام: نحن في صلاتنا لا نذكر إلا نبيّين من أنبياء الله لِزاماً وهما: نبيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ونبيُّ الله إبراهيم عليه السلام، فنقول في كلِّ صلاة: (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ) فنخصُّ هذا النبيَّ - أبا الأنبياء- بالذكر في صلاتنا، لا بدَّ أن لذلك حكمةً ومعنى، فأنبياء الله كثر، لكن إبراهيم نخصُّه في صلاتنا.

أحبابنا الكرام: هذا الرجل شخصية متميزة مباركة عظيمة، هذا الرجل يمثِّل قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(سورة الأنعام: الآية 162)

عاش لله، وأحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فاستحقَّ أن يذكره الله في قرآنه فيقول:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً

(سورة النحل: الآية 120)

فإبراهيم لم يكن فرداً، بل (كَانَ أُمَّةً) في الخير، يدلُّ الناس على الخير، ويعلم الناس الخير.

امتحان العقيدة

هذا النبي الكريم عاش ثلاثة امتحانات متتالية؛ الامتحان الأول كان امتحان عقيدة، امتحان إيمانٍ بالله، يوم هدَّم الأصنام التي كانت تُعبَد آلهةً من دون الله، فحول مسار أمةٍ كاملةٍ من ذلِّ الشرك إلى عزِّ التوحيد والعبودية، امتحان العقيدة يوم كان ينظر في السماء ويبحث عن إله ليُعلِّم الأمة إلى يوم القيامة أن العقيدة لا تؤخذ تقليداً، وإنما تؤخذ عن بحثٍ ودرسٍ، لذلك يقول تعالى قي قرآنه:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ

(سورة محمد: الآية 19)

التوحيد علم وليس قول

ولم يقل: فقل، فالتوحيد علمٌ وليس قولاً فحسب، فرقٍ بين أن تقول وأن تعلم، فالذي يقول: (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يمكن أن يعصي الله، لكن الذي يعلم (أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) لا يعصي الله، وإن عصاه بادر إلى بابه وإلى التوبة فوراً لأنه (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، ففرقٌ بين أن يقول المرء بلسانه (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وأن يعلم (أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فإبراهيم عليه السلام يوم جال بصره في الكون يبحث عن إله كان يعلمنا أن العقيدة ينبغي أن تأخذ من وقت الإنسان، ينبغي أن يطلب العلم، ينبغي أن يحضر إلى المساجد، ينبغي أن يجيل نظره في الكون، ينبغي أن يقرأ عن عظمة الله حتى يزداد التعظيم في قلبه فتزداد الطاعة، هذا امتحان العقيدة الذي خاضه إبراهيم.

امتحان التخلي عن كل شيء

الامتحان الثاني الذي خاضه إبراهيم عليه السلام: هو امتحان التخلي عن كل شيء، تنفيذ الأمر. الامتحان الأول كان امتحان معرفة، بينما الثاني امتحانُ تنفيذ، سنتكلم عن هذا الامتحان بشيءٍ من التفصيل.

الامتحان الثاني هو امتحان أن يتخلى هذا الأب النبي عن زوجه وابنه الرضيع:

{ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ، فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى المَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ {إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ} حَتَّى بَلَغَ {يَشْكُرُونَ}

{

(رواه البخاري)

الماء هو أساس الحياة

هذا ما يذكره ابن عباس كما في الصحيح، يتحدث عن أم إسماعيل عليه السلام يقول: (ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ) جاء بأم إسماعيل، (حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ) البيت لم يكن موجوداً لكنه موحى بمكانه، لأن البيت المعمور وهو أول بيت وضع للناس، مكان البيت موجود، لكن البيت بناه إبراهيم، فجاء إلى مكان البيت ثم (وَضَعَهُمَا عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ) الدوحة هي الشجرة الكبيرة، (عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ) فيما بعد تفجر زمزم، لكن الآن يروي المكان كما سيكون فيما بعد، (وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ) الماء هو أساس الحياة، ليس بها أحدٌ وليس بها ماءٌ، (فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا) كيساً صغيراً (فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءً) قربة ماء صغيرة (فِيهِ مَاءٌ) هذا الذي أبقاه لهما، (ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا) إلى أين؟ إلى أرض الشام، (ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ) هي لم تفهم ما الذي حدث، يأتي بها وبابنها يضعهما تحت دوحة في مكان لا نبت فيه ولا أنس ولا ماء ولا شيء، لا يوجد إلا هذه الشجرة، وليس معهما ما يكفيهما إلا لليلة واحدة ربما، جِرَابًا وَسِقَاءً، لا يكفي إلا لليلة، الأمر يكاد يكون خارج التصور البشري أن يفعل أبٌ بزوجه وابنه وهو يحبهما هذا الفعل، (الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ؟) لا شخص يؤنسنا ولا شيء نأكله ولا شيء نعيش منه، (فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا) تُكرر أين تتركنا؟ أين تتركنا؟ (وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا) هو لا يدير ظهره ويلتفت، لماذا لا يلتفت؟ إبراهيم عليه السلام أب وزوج يحب ابنه كما نحب أبناءنا، ويحب زوجه كما نحب زوجاتنا، خاف أن تنازعه نفسه، إذا التفت ووجد منظر الأم والطفل الرضيع وهي تستصرخه والطفل يبكي ربما تنازعه نفسه فيعود، فإبراهيم (جَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ) نفذ الأمر ومضى، (فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟) فهمت الآن أن هذا الأمر لا يمكن أن يفعله إبراهيم إلا أن يكون هناك أمر إلهي به، (قَالَ نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا).

اليقين عند السيدة هاجر

أحبابنا الكرام؛ هنا نقطة رائعة في فهم اليقين، أقول: هاجر هي أستاذة اليقين، مربية اليقين، أنا لم يمر معي يقين كهذا اليقين، أن امرأة ستبقى في هذا المكان وحيدة

الأمر هو الحافظ

امرأة تعرف ما ينتظرها مع ابنها الرضيع في صحراء لا نبت ولا إنس ولا شيء، ثم لما علمت أن الله تعالى هو الآمر قالت له: (إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا) اذهب فالله لن يضيعنا، لأنه أَمَرَ، وحاشاه أن يأمر ثم يضيِّع، فهي أيقنت أن الآمر يضمن، أن الآمر يحفظ، أن الآمر لا يمكن أن يأمرك بأمر وهو الحَكِيمُ، العَلِيمُ، الجَلِيلُ، العَظِيمُ، ثم يضيعك، هذه مسألة مهمة جداً في حياتنا، أن نوقن أن الآمر هو الحافظ، وأن الآمر هو الضامن، في أي مكان كنت، كنت أبًا تربي أبناءك فالله يحفظهم لك ويحفظك لهم، كنت في وظيفةٍ محامياً، طبيباً، معلماً، مربياً، في أي مكان كنت، تاجراً تتقي الله في تجارتك تدفع زكاة مالك قل: إذًا لا يضيعنا، المؤمن يبتلى، لا يعني إذًا لا يضيعنا أنه لن يبتلينا، بل لا يضيعنا بمعنى أن المآل إن شاء الله والنهاية ستكون خيراً لنا، نمر بابتلاءات، ها هي تُبتلى، هي تعرف أن أمامها ابتلاءً عظيماً، هي تعرف أنه بعد ساعات سينتهي الماء وسيبكي الغلام وتعرف أن هناك ابتلاء، لكن هي تدرك أن الله الذي أمر سيحفظ في محصلة الأمر، فانتهى الأمر بالنسبة لها قالت: (إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا).

أول ما دعا به إبراهيم عليه السلام بعد تنفيذ أمر ربه

أحبابنا الكرام: (فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ) الثَّنِيَّة: هو المكان الذي دخل منه محمدٌ صلى الله عليه وسلم إلى مكة، عند فتح مكة،(عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ) وصل إلى مكان لم يعودوا يستطيعون رؤيته، (اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ) لم يكن هناك بيت، لكن

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ

(سورة الحج: الآية 26)

اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

(سورة إبراهيم: الآية 37)

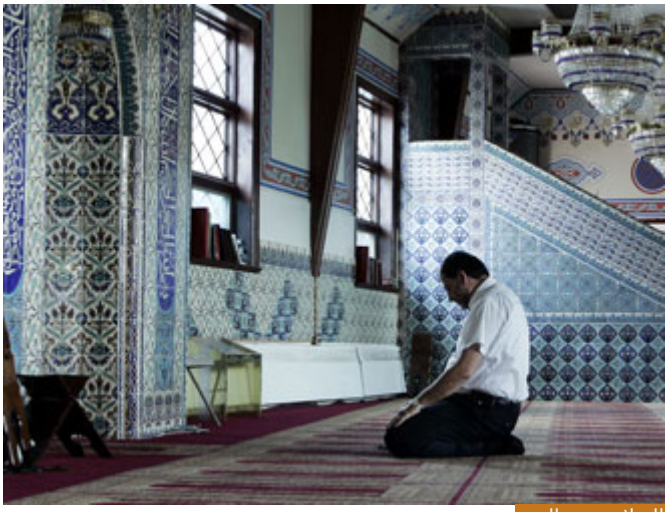

الصلاة تغذي الروح

الآن أريد أن أقف عند الآية، أحبابنا الكرام؛ إبراهيم عليه السلام نفذ الأمر، الآن يدعو، أي أب في هذا الموقف أول ما يدعو به أن يقول: يا رب ابعث لهم طعاماً وشراباً لأن المكان لا نبت فيه ولا شيء، إبراهيم عليه السلام يقول: (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ) قبل الطعام والشراب، لأنه يدرك أن الطعام والشراب يغذي الجسد، لكن الصلاة تغذي الروح، يدرك أن الطعام والشراب يفنى لكن الصلاة تبقى، فبدأ بالباقيات.

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا

(سورة الكهف: الآية 46)

ابدأ بما يبقى، لا تبدأ بما يفنى، إذا جلست تدعو قل: يا رب ارزقني الجنة، يا رب أنزل على قلبي السكينة والرحمة والخير، بعد ذلك قل: يا رب ارْزُقْنِي رزقاً طيباً حلالاً أتقوَّى به على طاعتك، الزرق مطلوب والمال مطلوب، لكن ابدأ بما يبقى، فإبراهيم عليه السلام بدأ بالأهم في التربية (رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) همُّه وشغله الشاغل أن يكون من ذريته في هذا المكان من يقيم الصلاة، ولم يقل: ربنا ليصلوا، وقد أسلفت لكم سابقاً أن هناك فرقاً بين أن تقول: صلِّ، وأن تقول: أَقم الصلاة، وكانت العرب تقول: أقام العرب سوقهم، أي لم يعطلوها من البيع والشراء، فإذا أقاموها وليس فيها بيعٌ ولا شراءٌ فهم لم يقيموا السوق، بل أنشؤوا مكاناً لكن لا يوجد بيعٌ ولا شراءٌ، إذا كان هناك بيعٌ وشراءٌ فقد أقيمت السوق، فقد حققت المقصد منها، فعندما يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
أَقِيمُوا الصَّلَاةَ

(سورة البقرة: الآية 43)

أي أَقِيمُوا الصَّلَاةَ على النحو الذي يرضي الله، عندما تنهى الصَّلاة عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ هذه هي إقامة الصلاة

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ

(سورة العنكبوت: الآية 45)

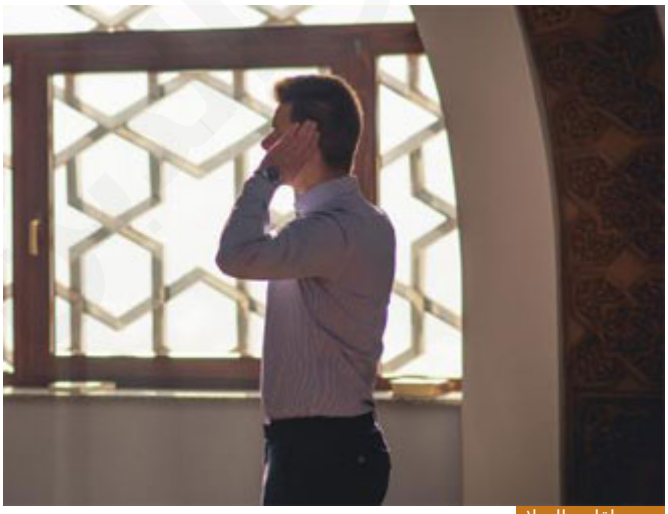

معنى إقامة الصلاة

أما الصلاة إذا كانت حركات وسكنات مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، فيسقط بها الوجوب وإن لم يحصل المطلوب، أما عندما تقام الصلاة يصبح المؤمن متصلاً بالله عزَّ وجلَّ فيطيع الله؛ لا يأتي بفحشاء في قوله ولا بمنكر في فعله (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) (الْفَحْشَاءِ) في القول، أما (الْمُنكَرِ) فيكون في الأفعال.

أهمية الجانب الاجتماعي

شكر الله هو الهدف الأسمى

أحبابنا الكرام: بدأ بالصلاة، بماذا ثنّى؟ بالجانب الاجتماعي (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) أيضاً ما زال يؤخِّر الجانب المادي، لأن الجانب الاجتماعي أهم من الطعام والشراب أن يكون حولهم أُناس (فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)، أخيراً: (وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ) ثم عاد إبراهيم ليربط هذه الثمرات وذاك الرزق بالهدف الأول (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) يعني حتى الرزق من الثمرات لم يرد منه إبراهيم أن يأكلوا ويشربوا، لكن أراد منه أن يحقق الهدف الأسمى منه وهو الشكر لله تعالى.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمسك تفاحةً يوماً فقال: " أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت".
كل شيء خلقه الله تعالى له هدفان: هدف مادي محدود تنتفع به، وهدف أعظم وأسمى تصل من خلاله إلى الله.
فلما قال: (وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ) لم يقل: ليأكلوا ويشربوا، هذه تحصيل حاصل، قال: (لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) لعل الثمار تلك تقودهم إلى شكر الله فيحققوا الهدف من وجودهم، (وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) هذه الآيات التي تلاها إبراهيم عليه السلام.

الله لا يضيِّع أهله

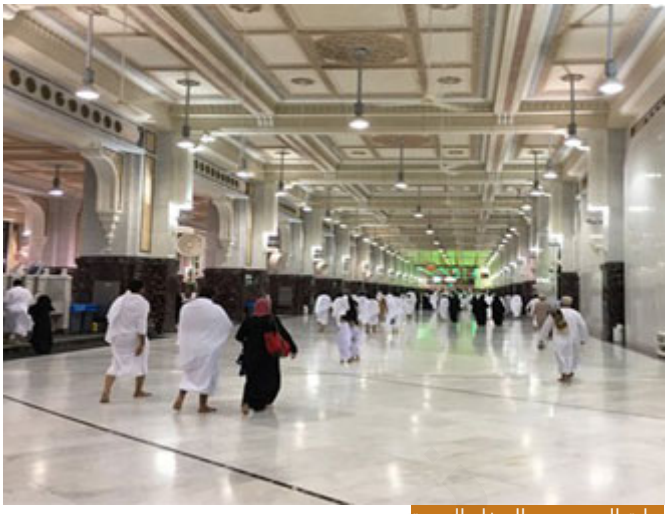

بداية السعي بين الصفا والمروة

الآن بعد ذلك؛ طبعاً القصة طويلة أنا أريد أن أعقب على مقاطع منها، نَفِدَ الماء وانتهى التمر وبدأت السيدة هاجر تسعى بين الصَّفَا والمَرْوَةَ، (قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا) (أخرجه البخاري)

نتذكر هذه الأستاذة، أستاذة اليقين، تقف على الصَّفَا لعلها ترى من أحد فلا ترى، فتعود وتسعى سَعْيَ المَجْهُودِ حتى سَمِعَتْ صَوْتًا، صوتاً ينادي، (فَقَالَتْ صَهٍ) تسكِّت نفسها يعني تقول لنفسها: اهدئي حتى تسمعي الصوت، فَسَمِعَتْ صوت المَلَك، فَقَالَتْ: (قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ) ما تمدنا به، الابن يبكي رأت ابنها يَتَلَوَّى، الابن بدأ يَتَلَوَّى، وهي لا تستطيع أن ترضعه لأنها هي غير قادرة إن لم تأكل وتشرب على الإرضاع، (فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ) فجاء الملك فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ بِجَنَاحِهِ الأرض فخرج الماء، ماء زمزم، (قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ) هي ماذا قالت قبل قليل؟ قالت: (إِذاً لاَ يُضَيِّعُنَا) جاءها الجواب من المَلَك: (لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ) أنتم أهل الله، نحن كلنا أهل الله واللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ جلَّ جلاله، فجاءها الجواب من الله عزَّ وجلَّ كما طلبت، هي لمَّا أيقنت أن الله لا يُضَيِّعها؛ جاءها الجواب من المَلَك: وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ.

عظمة ابتلاءات الأنبياء

التعلق الشديد بين الأب وابنه

أحبابنا الكرام: انقضت السنوات وجاء إبراهيم عليه السلام ليزور ابنه، (وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، يقول ابن عباس: فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ) عناق مع قبلات مع اشتياق، إبراهيم عليه السلام يوم ترك ابنه بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ كما قلنا، كان رضيعاً، وأشد ما يكون الإنسان تعلقاً بابنه وهو في صغره، ربنا عزَّ وجلَّ يُخلِص الأنبياء تحديداً لنفسه، هذا موسى عليه السلام:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي

(سورة طه: الآية 41)

يعقوب عليه السلام لما كان متعلقاً بيوسف تعلقاً شديداً أراد الله تعالى أن يُلقى فِي غَيَابَة الْجُبِّ وأن يغيب عنه سنواتٍ وسنواتٍ، حتى أصبح خالصاً لله، إبراهيم عليه السلام أراده الله خالصاً لنفسه فامتحنه بإسماعيل، وامتحنه بالذبح كما سيأتي معنا بعد قليل.

{ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ" }

(رواه الترمذي)

فابتلاءات الأنبياء عظيمة جداً، قد لا يطيقها البشر العاديون.

بناء بيت الله

الأمر ببناء بيت الله

إبراهيم بعد ذلك جاء (وَإِسْمَاعِيلُ كان يَبْرِي نَبْلًا لَهُ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ) الآن لم يسأله بماذا أمرك، إِسْمَاعِيل نبيٌّ ابن نبيٍّ، كريمٌ ابن كريم، لم يسأله بماذا أمرك ربك، لنرى ما الأمر وبعد ذلك نقرر هل ننفذ أم لا ننفذ! بل قَالَ: (قَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ) أنا معك لتنفيذ أمر الله، (قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا) مكان مرتفع قليلاً، مكان مكة، البيت، (فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ) (جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ) يقصد مقام إبراهيم الذي هو أمام الكعبة، (فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ) وقف عليه، (وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

(سورة البقرة: الآية 127)

هذه قصة بناء البيت.

أحبابنا الكرام: هذا الامتحان الذي خاضه هو الامتحان الثاني، الامتحان الأول: هو امتحان العقيدة، امتحان الإيمان، امتحان البناء، هدَّم الأصنام، نظر في السماء

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(سورة الأنعام: الآية 77-78-79)

ونحن ندعو بهذا الدعاء دعاء الاستفتاح في الصلاة.

الامتحان الثاني: تخلى عن زوجه وابنه الرضيع أسكنهما بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِ الله الْمُحَرَّمِ.

امتحان ذبح سيدنا إبراهيم لابنه

الامتحان الثالث هو الأشدُّ على النفس، الامتحان الثالث:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

(سورة الصافات: الآية 102)

(أَرَىٰ) وليس رأيت (أَرَىٰ) فقد تكرر المنام، هناك فعل ماض وفعل مضارع، يوسف عليه السلام لما رأى أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا قال:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

(سورة يوسف: الآية 4)

رأى مرة واحدة، لكن هو غلام والرؤيا جميلة جداً فذهب إلى والده فوراً (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا)، إبراهيم عليه السلام رأى الرؤيا ولم يذكرها، أب وهذا ابنه، تكررت مرة واثنتين وثلاثة والله أعلم، فقال: (إِنِّي أَرَىٰ) كل يوم أنام فأرى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ.

{ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إِنَّ رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ }

(رواه البخاري)

رؤيا الأنبياء وحي

الرؤيا لسنا مطالبين بتنفيذها إلا إن وافقت شرع الله، نحن لسنا متعبدين بالرؤى، لكن الأنبياء رؤاهم وحيٌ من الله يأتيهم في المنام (إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) هو عندما قال له: (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ) قال: نفذ الأمر، عند بناء البيت، هنا (إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) ذكر له الأمر فوراً لأن الأمر عظيم، إبراهيم ليس متردداً في التنفيذ لكن الموضوع كيف أفاتح ابني به (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) بلا تردد، ولا لحظة، ولا لماذا؟ ولا كيف؟ أريد أن أوجه رسالة إلى مسلم اليوم الذي تقول له:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

(سورة النحل: الآية 90)

ثم يتردد (بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) لا يأمرك بذبح ابنك (بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) اللذين فطرت عليهما أن تعدل وأن تحسن، إن الله يأمرك أن تغض البصر فيتردد، إن الله يأمرك بصلاة الفجر فلا يقوم إليها، الأوامر الإلهية هي ضمن المستطاع وهي ضمن المصلحة المفهومة والحكمة، لم يأمرنا الله تعالى بأمر لا نفهم حكمته، الصلاة ندرك أهميتها من خلال الواقع ونرى كيف نقطف ثمارها، رمضان نرى ثماره، الزكاة نرى أثرها في المجتمع، الأوامر كلها واضحة، مقاصدها واضحة، حكمها واضحة، ومع ذلك تجد مع الأسف مسلم اليوم يتردد في ترك النواهي وفي تنفيذ الأوامر، (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) لقد ذبح إبراهيم ابنه وإن لم يذبحه

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(سورة الصافات: الآية 103-104-105)

الصبر على قضاء الله وقدره

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) انتهت القضية، نحن اليوم قد لا تفعل القصة هذه فعلها في نفوسنا كما ينبغي لسبب بسيط؛ لأننا نعرف ما الذي حصل بعد ذلك، نعرف النهاية، لكن لمَّا قال له: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) لم يكن أمر الفداء وارداً إطلاقاً، ما من أحد يتخيل أنه لن يتم الذبح، الأمر يقوم على أساس أنه سوف ينتهي وسوف يذبح الغلام، سيذبحه بيده، (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) سأصبر على هذا الأمر، يحتاج صبراً ليس الأمر مطاقاً، ضمن الفهم البشري والمنطق البشري غير مطاق، لكن من الصابرين على قضاء الله (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) نفذت ما أمرتك (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ

(سورة الصافات: الآية 107)

ولا تزال الأمة إلى اليوم بعد آلاف السنوات تقتدي بإبراهيم عليه السلام فتذبح الأضاحي إحياءً لهذه السُنَّة، هذا إبراهيم، من هنا كان إبراهيم أمةً.

التعظيم والاستجابة

تعظيم الله عز وجل

أحبابنا الكرام: ملخص قصة إبراهيم أو امتحانات إبراهيم هما عبارتان نرددهما في عيد الأضحى ويرددهما الحجاج في المناسك، العبارة التي يرددها الجميع: الله أكبر الله أكبر، والعبارة التي يرددها الحجاج في المناسك لبيك اللهم لبيك، الله أكبر: التعظيم، ولبيك اللهم لبيك: الاستجابة، الله أكبر درس التعظيم، ليس هناك أكبر من الله، فلا نخاف من أحد إلا من الله، ولا يمكن أن نطيع مخلوقاً ونعصي خالقنا جلَّ جلاله، لا يمكن أن نرضي مخلوقاً في معصية الخالق، الله أكبر تقولها وأنت تبدأ الصلاة، الله أكبر من كل هموم الحياة ومن كل متاعب الحياة، تقولها وأنت في عملك فتسمع المؤذن يقول: الله أكبر فتترك كل شيء وتنصرف إلى صلاتك، هذه الله أكبر، درس التعظيم، لبيك اللهم لبيك درس الاستجابة لأمر الله، فالذي يقول الله أكبر من قلبه يقول: لبيك اللهم لبيك بعد ذلك، يستجيب، الاستجابة أثر من آثار التعظيم.

مثال: أنت الآن إذا كنت جالساً في البيت ووالدك أو والدتك همسا همساً: يا فلان، تنهض من فورك، لماذا؟ تعظيماً لوالدك ولقدره، أو لوالدتك، إذا كان ابنك هو الذي نادى: أبي وأنت مشغول بشيء فإنك لا ترد عليه، فالاستجابة من آثار التعظيم، ليست من آثار الحب فقط، ابنك تحبه لكن إذا كنت منشغلاً تقول: الآن ليس الوقت المناسب يا بني انصرف عني، أما إذا نادى الأب: يا فلان، تقول: حاضر أبي، تقف فوراً، لأنه يعظم والدك في نظرك فتلتزم أمره.

الآن مع الله تعالى لما يكون الله عظيماً في قلبك فإنك تقول: لبيك اللهم لبيك، لا أمر يعلو فوق أمرك ولا استجابة إلا لك، كأن الله يقول: تعال يا عبدي، فتقول: لبيك اللهم لبيك، جئتك، إبراهيم عليه السلام هذا الذي فعله في الامتحانين، عظَّم الله وبنى له بيتاً، فلما قال الله تعالى له: اذبح ولدك، ذبح، اجعل زوجتك وابنك بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ، جعلهما فوراً.

أوامر الله قد تكون امتحاناً لعبوديتنا

امتحان العبودية في أوامر الدين

إخواننا الكرام: أوامر الله عزَّ وجلَّ تسعون بالمئة أو خمسة وتسعين بالمئة واضحة، لا تحتاج تعباً حتى تفهم الحكمة منها، ربنا عزَّ وجلَّ أمر بالصدق؛ هل يسأل الإنسان: ما الحكمة من هذا الأمر؟! الحكمة أن الصدق في حياتك ينفعك، هذا واضح، أحياناً ربنا عزَّ وجلَّ تأتي أوامر غير مفهومة هنا يمتحن عبوديتك، امتحان العبودية لا يكون في كل أمر تفهم حكمته، قد تغيب الحكمة أحياناً في بعض الأوامر، فهنا يُمتحن من يعبد الله ومن يعبد مصالحه وذاته، فلذلك أحياناً تجد في الدين آيات متشابهة، لماذا؟ هذا امتحان العبودية، تجد أمراً ربما بنظرك لا يوافق العقل، يقول الفقهاء: لو كان الدين بالعقل لكان مسح باطن الخف أولى من مسح الظاهر، لأنه تصيبه الأرض والنجاسة، لكن المسح للظاهر، فأحياناً بعض الأوامر وهي قليلة جداً لا تشكل ربما واحد بالمئة أو خمسة بالمئة من أوامر الدين يمتحن الله تعالى بها عبوديتك، لأنك تعبد الله ولا تعبد ذاتك، فنحن نعبد الله كما أمر الله جلَّ جلاله، إذاً هما امتحانان: الله أكبر، ولبيك اللهم لبيك، فالذي يُعَظِّم يستجيب.

صفات سيدنا إبراهيم

ربنا عزَّ وجلَّ لما وصف إبراهيم قال:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

(سورة النحل: الآية 120-121)

1- (كَانَ أُمَّةً).
2- (قَانِتًا لِّلَّهِ).
3- (حَنِيفًا).
4- (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).
5- (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ).

النبوة اصطفاء من الله

هذه صفات إبراهيم، وبناءً عليها (اجْتَبَاهُ) اصطفاء الله عزَّ وجلَّ مبني على أسس، النبوة هبةٌ أم كسبٌ؟ هي هبة، لا يوجد إنسان يعبد الله وأخلاقه عالية فيصبح بعد حين نبياً! النبوة هبة من الله، اصطفاء، لكن هذا الاصطفاء هل هو عن علم أم عن غير علم؟ حاشاه جلَّ جلاله، بل هو عن علم، هل تقبل من معلم حكيم أن يصطفي طالباً من غير علم؟! فربنا عزَّ وجلَّ عليم بما كان وبما سيكون فلما اصطفى خيرة خلقه واصطفى منهم أنبياءه ورسله اصطفاهم عن علم جلَّ جلاله، فإبراهيم لما اجْتَبَاهُ الله تعالى؛ (كَانَ أُمَّةً)، (قَانِتًا لِّلَّهِ)، (حَنِيفًا)، (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ)، الأمة هو الذي يُعلِّم الناس الخير، ويدلهم على الله، ويدلهم على الخير، هناك إنسان فرد يعيش لذاته يأكل ويشرب ويتزوج ويتمتع وينام، هذا فرد، هناك إنسان أسرة، تزوج، أنجب أولاداً، ربَّاهم على الطاعات والخيرات، يوم القيامة يأتي مع أسرته، يا رب قدمت بين يدي أولادي وزوجتي، هذا أسرة، هناك إنسان عائلة همه أكبر يتفقد أخواله، أعمامه، إذا كان ابن عمه يحتاج مبلغاً من المال يخدمه، ابن خاله دخل الجامعة يريد مساعدة بالقسط يمده، هناك إنسان أكبر وأكبر إلى أن نجد مؤمناً أمة، أمة في الخير، هذا فرعون أمةٌ في الشر!!

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ

(سورة هود: الآية 98)

أما إبراهيم عليه السلام فكان أمة في الخير.

مرةً ابن مسعود رضي الله عنه كان بين أصحابه فقال: إن معاذ بن جبل كان أمةً قانتاً لله، فقالوا: غَلِط ابن مسعود، ابن مسعود مُقرِئ لا يغلط بالقرآن، فأعادها فقال: إن معاذ بن جبل كان أمةً، هو لا يتلو آيةً هو يشبِّه، قانتاً لله، قالوا كيف ذلك؟ قال: إن معاذ بن جبل كان أمةً في الخير مطيعاً لله، ولذلك كنا نشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام، يمكن لأي مؤمن أن يكون قريباً من سيدنا إبراهيم عندما يكون أمةً في الخير، هدفه كبير وطموحاته عالية، هدفه نصرة الأمة ومساعدة الناس، يبذل ما يستطيع لمساعدة الضعفاء، لمساعدة المرضى فيصبح أمةً في الخير.

الحنيف أي المائل إلى الحق

الميل عن أهل الباطل والابتعاد عنهم

(قَانِتًا لِّلَّهِ) أي مطيعاً لله، (حَنِيفًا) الحنيف هو المائل عن الباطل وأهله إلى الحق وأهله، يميل، كل إنسان يميل، يقول لك: فلان يميل إلى فلان، حنيف، ومنه الأحنف، فالحنيف هو المائل يميل من شيء إلى شيء، فكيف مال إبراهيم؟ مال عن الباطل وأهله إلى الحق وأهله، هذا هو الولاء والبراء، أنت تميل عن أهل الباطل تبتعد عنهم، تبتعد عن سهرة مختلطة اختلاطاً غير منضبط، لا ترضي الله، تقام فيها أشياء لا ترضي الله، وتميل إلى سهرة منضبطة بمنهج الله فيها كلمة حق وخير، هذا ميل، حنيف، أنت حنيف بمعنى أنك تميل عن الربا إلى التجارة الحلال، تميل عن الكذب إلى الصدق، فالصفة الثالثة (كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا)، (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) التوحيد، "وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد"، إبراهيم عليه السلام كان موحداً، بل كان دينه الإسلام، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(سورة آل عمران: الآية 67)

الشكر علامة إدراك النعمة

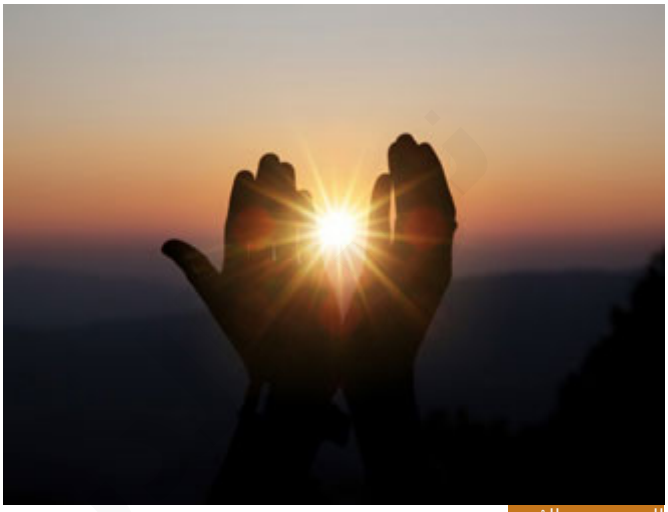

المؤمن همه المُنعِم

(شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ) هنا اختص الشكر من بين كل الصفات، الشكر، لأن الشكر أيها الأحباب؛ علامةٌ عظيمة على إدراك النعمة وعلى الانتقال من النعمة إلى المُنعِم جلَّ جلاله، فالمؤمن حياته مع المنعم، وغير المؤمن يقضي حياته مع النعمة، البعيد عن الله يقضي حياته مع النعم، مع الحاجات الفانية، همه في النعم، بينما المؤمن همه المُنعِم، إذا رأيت إنساناً همه بالطعام فقط فإنه يصغُر في عينيك، إذا رأيته مهتماً بصاحب الطعام تقول: والله فلان وضعنا له أجود أنواع الطعام الكثيرة لكن والله هو كان همه أن يجلس معنا يحبنا، جاء من أجلنا وليس من أجل الطعام، فيكبُر في عينك عندما يكون همه مع الناس، الكافر مع النعمة قضى حياته ليُحصِّل النعمة، والله عزَّ وجلَّ قد يعطيه من النعم الكثير الكثير، وقد يزيد عليه من النعم على ما يعطيه للمؤمن، لما إبراهيم عليه السلام قال:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ

(سورة البقرة: الآية 126)

سنرزق الجميع المؤمن والكافر.

{ عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعديِّ قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْها شَرْبَةَ مَاءٍ }

(رواه الترمذي)

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ

(سورة الأنعام: الآية 44)

فالدنيا لا تساوي عند الله شيئاً، فالنعم يأخذها غير المؤمن، لكن المؤمن لا ينشغل بالنعمة عن المنعم، حياته مع المنعم، هدفه إرضاء الله تعالى، هدفه أن يبقى مع الباقي جلَّ جلاله، وليس مع الفاني الذي يفنى بعد حين.

أحبابنا الكرام:
1- (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً).
2- (قَانِتًا لِلَّهِ).
3- (حَنِيفًا).
4- (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).
5- (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ).

إحصاء خيرات نعم الله علينا

أحبابنا أيضاً في سورة إبراهيم:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

(سورة إبراهيم: الآية 34)

نعمة القرآن نعمة كبيرة جداً

نعمة: مفرد، بالله عليك لو قلت لك: خذ هذه الورقة وعُدَّها كيف تعدها؟ تقول لي: هذه ورقة واحدة لا تعد، المفرد لا يعد، (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)، قال العلماء: إن في النعمة الواحدة من نعم الله عزَّ وجلَّ من الخيرات ما لو أمضيت عمرك وأنت تعدُّ خيراتها لما انتهيت، نعمة البصر، نعمة العافية، نعمة القوة، نعمة الولد، نعمة الهواء، نعمة الإسلام، نعمة القرآن لو أمضيت عمرك تعد نعمها عليك وكم من أفضال للقرآن في حياتك، فهل تنتهي أفضال القرآن علينا؟! فالنعمة الواحدة أنت عاجزٌ عن إحصاء خيراتها، الإحصاء شيء والعد شيء آخر، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ
لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

(سورة مريم: الآية 94)

العد سهل جداً، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، يقول لك: في هذه الجلسة عشرون شخصاً.

الإحصاء أبلغ من العد

أما الإحصاء ففي هذه الجلسة عشرون شخصاً، أربعة منهم تجار، واثنان معلمان، وجميعهم متزوجون عدا ثلاثة نسأل الله أن يزوجهم، هذا إحصاء، فالإحصاء أبلغ من العد، أن تفهم حقيقة الموجودين، هذا يحتاجه المعلم، المعلم لا يكفي أن يعد الطلاب، تقول له: كم طالباً في صفك؟ يقول لك: ثلاثون طالباً، ماذا تعرف عنهم؟ لا أعرف عنهم شيئاً، كيف ستربيهم؟! يجب أن تحصي، هذا أمه مطلقة يحتاج إلى عناية خاصة، هذا والده متوفى، يتيم يحتاج إلى ترفّق أكثر، هذا فقير الحال يحتاج إلى دعم نفسي، هذا إحصاء، فالإحصاء أبلغ من العد (لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا)، فهنا (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا) المطلوب منك أن تحصي النعم وتحصي خيرات النعمة الواحدة لكنك لن تستطيع (لا تُحْصُوهَا) فإذا كنت عاجزاً عن إحصاء خيراتها فأنت عاجزٌ عن شكرها من باب أولى، إذا أنت لم تستطع أن تدرك نعمة الله فهل تستطيع أن تشكرها؟!

{ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ }

(رواه البخاري)

لم يقل: من عدها، فالذي يحصي أسماء الله تعالى: اللطيف، الرحيم، يكون لطيفاً يكون رحيماً مع الناس، يأخذ نصيبه من أسماء الله الحسنى ويتقرب إلى الله بما أخذه من هذا النصيب، فالله لطيف وهو لطيفٌ مع الخلق، والله هو الرفيق وهو يترفق مع أهل بيته، والله هو الرحيم وهو يرحم من حوله من الضعفاء، فيكون بذلك قد أحصى أسماء الله.

فضل عشر ذي الحجة

إخواننا الكرام: نحن في أيام العشر، أيام مباركة

{ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: وَلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ }

(رواه الترمذي)

نفع الآخرين بالعمل الصالح

فأسأل الله تعالى أن يلهمنا في هذه الأيام أن نكثر من الأعمال الصالحة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، لا سيما الأعمال الصالحة التي يكون نفعها متعدياً إلى الآخرين ممن يستطيع ذلك، أن يكون النفع متعدياً لا قاصراً، الأعمال الصالحة القاصرة كالصيام والذكر مطلوبة، لكن إذا كان هناك نفع متعدٍ يصل خيره إلى الآخرين فهذا من أفضل الأعمال الصالحة، وتنوع بينهما.

والحمد لله رب العالمين.

نور الدين الاسلامي